السياق الثقافي والفكري للمدرسة الأبيقورية

نشأت المدرسة الأبيقورية في سياق حضاري وفكري ارتبط بالعصر الهلنستي الذي أعقب انهيار دولة المدينة اليونانية بعد فتوحات الإسكندر الأكبر، حيث شهد العالم اليوناني تحولات سياسية واجتماعية عميقة أدت إلى تراجع المشاركة السياسية للمواطن، وانتقال الإنسان من الاهتمام بالشأن العام إلى الانشغال بذاته وبمصيره الفردي. وقد ترتب على ذلك انتشار مشاعر القلق والخوف وعدم الاستقرار، الأمر الذي دفع الفلسفة إلى التحول من البحث في قضايا الوجود والمدينة المثالية إلى البحث عن السعادة الفردية والطمأنينة النفسية.وفي هذا المناخ ظهرت المدارس الهلنستية الكبرى، ومن بينها المدرسة الأبيقورية التي أسسها أبيقور في أثينا خلال القرن الرابع قبل الميلاد. وقد اتخذت هذه المدرسة طابعًا عمليًا واضحًا، إذ لم تنظر إلى الفلسفة باعتبارها تأملًا نظريًا مجردًا، بل عدّتها وسيلة لتحرير الإنسان من الخوف والاضطراب وتحقيق السكينة الداخلية.

تأثرت الأبيقورية بعدة تيارات فلسفية سابقة، خاصة الفلسفة الذرية عند ديموقريطس، حيث أخذ أبيقور عنها فكرة الذرات والخلاء، غير أنه أعاد توظيفها في إطار مشروع أخلاقي غايته تحرير الإنسان من الخوف من الآلهة والموت والقدر. كما تأثرت الأبيقورية ببعض الاتجاهات السقراطية التي جعلت من الفلسفة أسلوب حياة يهدف إلى تهذيب النفس وتحقيق السعادة. ومن الناحية الثقافية، جاءت الأبيقورية ردّ فعل على انتشار التفسيرات الأسطورية والدينية للكون والظواهر الطبيعية، إذ سعى أبيقور إلى تقديم تفسير عقلي مادي للطبيعة يقوم على القوانين الطبيعية لا على تدخل القوى الغيبية. ولذلك ارتبطت فلسفته بالدعوة إلى تحرير العقل من الأوهام والخرافات، لأن الجهل بالطبيعة ـ في نظره ـ هو السبب الأساسي للخوف والشقاء الإنساني.كما تميزت المدرسة الأبيقورية بنزعتها الإنسانية الواضحة، إذ جعلت الإنسان محور اهتمامها، وربطت قيمة المعرفة بقدرتها على تحقيق الطمأنينة النفسية. فالفلسفة عند أبيقور ليست غاية في ذاتها، وإنما وسيلة للعلاج النفسي والعقلي، ولذلك ارتبطت الطبيعيات والمنطق والأخلاق عنده بوحدة فكرية متكاملة هدفها النهائي بلوغ السعادة والتحرر الداخلي. وقد استمرت الأبيقورية في التأثير خلال العصر الروماني، خاصة من خلال جهود لوكريتيوس الذي عرض الفلسفة الأبيقورية في قصيدته الشهيرة «في طبيعة الأشياء»، حيث دافع عن التفسير الطبيعي للعالم وعن حرية الإنسان في مواجهة الخوف الديني والأسطوري. وبذلك أصبحت المدرسة الأبيقورية إحدى أهم المدارس الفلسفية التي عبرت عن التحول الفكري في العصر الهلنستي من الاهتمام بالمدينة والسياسة إلى الاهتمام بالفرد وسعادته الداخلية.

ثانيا: مباحث الفلسفة الأبيقورية (الموضوعات الكبرى للفلسفة الأبيقورية)

أولا/ التصور الأبيقوري للطبيعة: يمكن الوقوف على التصور الفلسفي للطبيعة عند أبيقور من خلال الرسائل التي حفظها لنا ديوجين اللايرتي، والتي تُعد المصدر الأساسي لفهم مذهبه الفلسفي. فقد أشار ديوجين اللايرتي إلى ثلاث

رسائل رئيسية تلخص البناء الفكري للأبيقورية؛ إذ تعرض الرسالة الموجهة إلى هيرودوت المبادئ العامة لفلسفة أبيقور الطبيعية، بينما تتناول الرسالة الموجهة إلى مينويكيوس مذهبه الأخلاقي، أما رسالته إلى بيثوكليس فتتناول موضوعات فلكية وطبيعية مرتبطة بتفسير الظواهر الكونية. ومن هنا يتبين أن الطبيعيات تمثل الأساس النظري الذي يقوم عليه النسق الأبيقوري بأكمله، لأنها الإطار الذي يفسر العالم والإنسان والطبيعة تفسيراً عقلياً يهدف في النهاية إلى تحرير الإنسان من الخوف والاضطراب. ويقوم التصور الأبيقوري للطبيعة على مفهوم جوهري يتمثل في المادية الذرية، وهي الفكرة التي ورثها أبيقور عن الفلسفة الذرية السابقة، خاصة عند ديموقريطس، غير أنه أعاد توظيفها ضمن مشروع فلسفي ذي غاية أخلاقية ونفسية. فالعالم عند أبيقور يتكون من عدد لا متناهٍ من الذرات التي تتحرك في فراغ أو خلاء واسع، ومن اتحاد هذه الذرات تتكون الأشياء، كما أن انفصالها يؤدي إلى تفكك الموجودات وفنائها. فالوجود بأسره ـ بما في ذلك الإنسان والنفس ـ يخضع لهذا التفسير المادي القائم على حركة الذرات واجتماعها وتفرقها.ويرى أبيقور أن الذرات تختلف في الشكل والحجم والوزن، لكنها لا تختلف في طبيعتها أو كيفيتها، لأن جميعها ذات طبيعة مادية واحدة. ولذلك فإن مذهبه يمثل تصوراً مادياً خالصاً لا يعترف بوجود جواهر روحانية مفارقة أو قوى غير مادية مستقلة عن المادة. فالنفس ذاتها ليست إلا تركيباً من ذرات دقيقة وخفيفة تنتشر في الجسد وتمنحه الحياة والإحساس، وعند الموت تتفكك هذه الذرات كما يتفكك الجسد، ومن ثم يزول الإحساس تماماً.

يترتب على هذا التصور المادي أن العالم عند الأبيقوريين ليس نتاج تدخل إلهي مباشر، بل هو نظام طبيعي تحكمه أسباب مادية وقوانين ميكانيكية. فالكون يعمل وفق نظام طبيعي داخلي دون حاجة إلى قوة متجاوزة للطبيعة تديره أو تتحكم في مجراه. ومن هنا رفض أبيقور التفسيرات الدينية والأسطورية للظواهر الطبيعية، واعتبر أن ما ينسبه الناس إلى الآلهة أو القدر إنما يرجع في حقيقته إلى جهلهم بالقوانين الطبيعية.غير أن الهدف الأساسي من هذا التفسير الطبيعي لم يكن مجرد بناء نظرية علمية عن الكون، وإنما إزالة المخاوف التي سيطرت على العقل البشري وكانت سبباً في شقائه واضطرابه. فقد رأى أبيقور أن الإنسان يعيش في قلق دائم بسبب خوفه من الآلهة، ومن العقاب، ومن الموت، ومن القوى الغامضة التي يظن أنها تتحكم في مصيره. ولذلك جاءت الفلسفة الطبيعية الأبيقورية بوصفها علاجاً لهذا القلق الوجودي، لأنها تحرر الإنسان من الاعتقاد بوجود قوى فوق طبيعية تتدخل في العالم وفي حياة البشر.

ويمكن توضيح هذا البعد النفسي والأخلاقي من خلال التراجيديا اليونانية، خاصة قصة أجاممنون الذي اضطر إلى التضحية بابنته خضوعاً لإرادة القدر حتى تتمكن السفن من الإبحار دون أن تعوقها الرياح. فمثل هذه التصورات كانت تعكس ـ في نظر الأبيقوريين ـ خضوع الإنسان لقوى متعالية يشعر أمامها بالعجز الكامل. ومن هنا أراد أبيقور تحرير الإنسان من هذا الإحساس بالمصير المفروض والقدر المحتوم.كما يحتل الموت مكانة مركزية في فلسفة أبيقور الطبيعية، لأنه يمثل أحد أكبر مصادر الخوف الإنساني. ولذلك يؤكد أبيقور أن الموت ليس شراً، لأن الإنسان لا يشعر به؛ فحين يوجد الإنسان لا يكون الموت موجوداً، وحين يحضر الموت يغيب الإنسان. والموت عنده ليس

سوى نهاية للإحساس، لأن النفس تتكون من ذرات مادية تتفكك بعد فناء الجسد، ومن ثم لا يبقى أي شعور بالألم أو العذاب أو العقاب. ولذلك فإن الخوف من الموت قائم على أوهام دينية وخيالات لا أساس لها في الطبيعة.

من هذا المنطلق يرى الأبيقوريون أن ما يقيد الإنسان حقاً ليس الواقع ذاته، بل تصورات الإنسان الخاطئة عن الكون والقدر والآلهة. فالجهل بالطبيعة يولد الخوف، والخوف يولد الشقاء. ولهذا أكد لوكريتيوس، وهو من أبرز تلاميذ الأبيقورية، **أن الإنسان حين يعجز عن فهم الظواهر الطبيعية يلجأ إلى اختراع فكرة القدر أو الآلهة ليملأ الفراغ المعرفي، غير أن هذا التفسير لا يمنحه الحرية، بل يجعله أكثر خضوعاً وخوفاً، لأنه يمنحه إحساساً زائفاً بالأمان في الوقت الذي يفقد فيه مسؤوليته وحريته الحقيقية**. غير أن التصور الأبيقوري للطبيعة يثير مفارقة فلسفية عميقة؛ فإذا كان العالم قائماً على حركة ذرية ميكانيكية تخضع لقوانين طبيعية صارمة، فكيف يمكن الحديث عن الحرية الإنسانية؟ وكيف يمكن للإنسان أن يكون مسؤولاً عن أفعاله إذا كانت جميع الظواهر، بما فيها أفعاله النفسية والجسدية، ناتجة عن حركة آلية للذرات؟ لقد أدرك أبيقور خطورة هذه المشكلة، لأن الحتمية المطلقة تؤدي إلى انهيار الأخلاق وتحول الإنسان إلى مجرد نتيجة ضرورية لحركات مادية لا يملك إزاءها أي اختيار. ومن هنا ظهرت محاولة الأبيقورية للخروج من الحتمية الصارمة من خلال فكرة ''الانحراف الذري'' أو ''الكلينامن(Clinamen) ''، وهي الفكرة التي طورها لوكريتيوس في عرضه للفلسفة الأبيقورية.وتقوم هذه الفكرة على أن الذرات لا تتحرك دائماً في خطوط مستقيمة ثابتة، بل قد يحدث لها انحراف طفيف وعشوائي عن مسارها. وهذا الانحراف البسيط يكسر السلسلة السببية المغلقة التي تحكم الكون، ويمنع العالم من أن يكون آلة ميكانيكية مغلقة بالكامل. ومن خلال هذا ''الهامش'' الموجود في الطبيعة يمكن تفسير الحرية الإنسانية وإمكان الاختيار.غير أن الحرية عند الأبيقوريين ليست حرية مطلقة منفصلة عن شروط الطبيعة، بل هي حرية نسبية تنشأ داخل النظام الطبيعي نفسه. فالإنسان يظل كائناً مادياً خاضعاً لقوانين الطبيعة، لكنه يمتلك في الوقت ذاته قدرة على الاختيار بفضل هذا الانفتاح الموجود في حركة الذرات. وهكذا حاولت الأبيقورية التوفيق بين المادية الطبيعية وبين المسؤولية الأخلاقية، حتى لا يتحول الإنسان إلى مجرد كائن خاضع لضرورة عمياء.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن مبحث الطبيعيات في الفلسفة الأبيقورية لا يقتصر على تفسير مادي للكون، بل يمثل مشروعاً فلسفياً متكاملاً هدفه تحرير الإنسان من الخوف والجهل والقلق الوجودي. فالطبيعة عند أبيقور ليست مجالاً للتأمل النظري المجرد، وإنما أساس لبناء حياة إنسانية قائمة على الطمأنينة العقلية والحرية الداخلية، وذلك من خلال فهم العالم فهماً عقلانياً يزيل أوهام القدر والعقاب والموت.

ثانيا/نظرية المنطق والمعرفة: يمثل مبحث المعرفة عند أبيقور جانباً أساسياً من مشروعه الفلسفي، لأنه يرتبط ارتباطاً مباشراً بمذهبه في الطبيعة والأخلاق. فالمعرفة عند الأبيقوريين ليست بحثاً نظرياً مجرداً، بل وسيلة لتحرير الإنسان من الخطأ والوهم والخوف، ومن ثم الوصول إلى الطمأنينة النفسية والسعادة. ولذلك جاءت نظرية المعرفة عندهم ذات

طابع عملي واضح، هدفها تأسيس يقين عقلي يقوم على الخبرة الحسية المباشرة لا على التأملات الميتافيزيقية المجردة. وقد أطلق أبيقور على نظريته المعرفية اسم ''القانون'' أو ''الكانون(Canon) ''، أي المعيار الذي يمكن بواسطته التمييز بين الحقيقة والخطأ. ومن هنا فإن المنطق عند الأبيقوريين لا يظهر بوصفه علماً صورياً مستقلاً كما عند أرسطو، بل باعتباره أداة معيارية تهدف إلى تحديد مصادر المعرفة الصحيحة وإرساء الأسس التي يقوم عليها اليقين الإنساني.ويذهب الأبيقوريون إلى أن أصل المعرفة كلها حسي وليس عقلياً خالصاً؛ فالعقل لا يمتلك أفكاراً فطرية سابقة على التجربة، وإنما تتكون جميع الأفكار والتصورات من الإحساسات التي ترد إلى الإنسان من العالم الخارجي. ولذلك فإن كل ما يوجد في الذهن من أفكار وآراء وتصورات ليس إلا حصيلة سلسلة من الإدراكات الحسية التي تنبعث من الأشياء الخارجية ثم تنطبع في النفس والعقل.ومن هذا المنطلق يرفض أبيقور التصورات العقلية الخالصة التي تفصل المعرفة عن التجربة الحسية، ويرى أن الإحساس هو المصدر الأول والأساسي لكل معرفة. فالأشياء الخارجية تبعث صوراً أو انطباعات دقيقة تصل إلى الحواس، ومن خلال هذه العملية تتكون المعرفة الإنسانية. ولذلك فإن الإحساسات عنده صادقة في ذاتها، لأنها تمثل الأثر المباشر للواقع الخارجي في النفس. لقد ذهب أبيقور حد في كتابه ''القانون'' إلى تحديد مراتب الفعل المعرفي في ثلاثة عناصر أساسية هي كالآتي:

أولاً: الإحساسات تمثل الإحساسات الأساس الأول للمعرفة الإنسانية، لأنها الصلة المباشرة بين الإنسان والعالم الخارجي. فالحواس تنقل إلى العقل صور الأشياء كما تظهر في الواقع، ولذلك اعتبر أبيقور أن الإحساس في ذاته لا يخطئ، لأن الخطأ لا يصدر عن الإحساس نفسه، بل عن الأحكام التي يضيفها العقل إلى هذه الإحساسات. فحين يرى الإنسان شيئاً من بعيد قد يخطئ في تفسيره، لكن الإحساس البصري ذاته يظل صحيحاً لأنه نقل صورة واقعية كما ظهرت للحاسة.ولهذا منح أبيقور للإدراك الحسي مكانة مركزية، لأنه رأى أن إنكار الحواس يؤدى إلى هدم المعرفة كلها، إذ لا يمكن للعقل أن يفكر في شيء لم يمر أولاً عبر التجربة الحسية. ومن هنا ارتبطت المعرفة عند الأبيقوريين ارتباطاً وثيقاً بالعالم المادي والطبيعة المحسوسة.**ثانياً**: الحدس أو التصور الكلي أما الحدس فيمثل المرحلة الثانية من الفعل المعرفي، ويقصد به الصورة العامة أو الفكرة الكلية التي تتكون في الذهن نتيجة تراكم الإحساسات الجزئية المتشابهة. فالإنسان حين يرى أفراداً كثيرين من البشر تتكون لديه تدريجياً صورة عامة أو مفهوم كلي للإنسان.ولذلك فإن الحدس عند أبيقور هو نوع من الإدراك العقلي القائم على الخبرة الحسية المتكررة، وليس فكرة فطرية مستقلة عن التجربة. وهو ما يمكن تسميته ''التصور العقلي'' أو ''الرأي الصحيح'' الذي يسمح للإنسان بالتعرف على الأشياء بمجرد سماع اسمها أو الإشارة إليها.ويضرب الأبيقوريون مثالاً لذلك بفكرة ''الإنسان''، فبمجرد أن يسمع الفرد كلمة ''إنسان'' تتشكل في ذهنه صورة عامة لهذا الكائن، وهذه الصورة ليست ناتجة عن معرفة فطرية سابقة، وإنما عن تراكم التجارب الحسية المرتبطة برؤية البشر في الواقع. ومن هنا فإن الحدس يمثل انتقالاً من الإدراك الجزئي المباشر إلى التصور الكلي العام.ويكشف هذا التصور عن النزعة التجريبية الواضحة في نظرية

المعرفة الأبيقورية، لأن المفاهيم العقلية نفسها تعود في أصلها إلى الإحساس والتجربة، ولا وجود لمعرفة مستقلة تماماً عن العالم الحسي.

الظاهر من المساءلة لمبحث المعرفة الأبيقوري أن نظرية المعرفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمذهبهم الطبيعي؛ فبما أن العالم مادي ويتكون من ذرات وأجسام محسوسة، فإن المعرفة لا بد أن تكون بدورها قائمة على الإحساس والتجربة المادية. ومن هنا يظهر الانسجام بين نظرية المعرفة والطبيعيات في النسق الأبيقوري.وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الأبيقورية قدمت تصوراً تجريبياً للمعرفة يقوم على الإحساس بوصفه المصدر الأول لليقين، وعلى الحدس باعتباره نتاجاً لتراكم الخبرة الحسية، وعلى الانفعالات بوصفها معياراً عملياً للسلوك الإنساني. وقد كان الهدف النهائي من هذا التصور هو تحرير الإنسان من الأوهام والأحكام الباطلة، وتأسيس معرفة طبيعية عقلانية تمكنه من بلوغ السكينة النفسية والسعادة.

ثالثا/ التصور الأبيقوري للأخلاق: تُعدّ الأخلاق المحور الأساسي في الفلسفة الأبيقورية، إذ انصرف اهتمام أبيقور إلى البحث عن الوسيلة التي تُمكّن الإنسان من بلوغ السعادة والطمأنينة النفسية. وقد انتهى الأبيقوريون إلى اعتبار اللذة المعيار الحقيقي للسعادة، فاللذة عندهم هي الخير الأسمى والغاية النهائية التي يسعى إليها الإنسان، في حين يُعدّ الألم الشرّ الذي يهرب منه الإنسان ويتجنّبه بطبيعته. ومن ثمّ فإن قيمة الفضيلة لا تُقاس في ذاتها، وإنما بما تؤدي إليه من لذة وراحة للنفس.غير أنّ مفهوم اللذة عند أبيقور لا يقتصر على اللذات الحسية الآنية أو العابرة كما ذهب إليه القورينائيون، بل يتخذ معنى أعمق وأكثر اتساعًا. فقد رفض أبيقور اللذات المؤقتة التي يعقبها ألم أشد، لأنّها لا تحقق للإنسان السكينة الدائمة، ورأى أنّ الحكمة الحقيقية تتمثل في اختيار اللذات التي تضمن راحة النفس واستقرارها، حتى وإن تطلب الأمر تحمّل بعض الآلام المؤقتة إذا كانت تؤدي إلى لذة أعظم في المستقبل. وبهذا أصبحت اللذة عنده مرتبطة بالعقل والتعقل، لا بالاندفاع وراء الشهوات.

كما ميّز أبيقور بين اللذة الجسدية واللذة العقلية، واعتبر اللذات العقلية أسمى وأبقى من اللذات الحسية؛ ذلك لأنّ الجسد لا يشعر إلا بلذات الحاضر وآلامه، بينما يستطيع العقل أن يستعيد ذكريات اللذات الماضية وأن يتطلع إلى الخير الآتي، فيمنح الإنسان حالة من الرضا والطمأنينة المستمرة. ومن هنا تتجلى أهمية الفكر والتأمل في تحقيق السعادة الحقيقية.وقد أكّد أبيقور كذلك على ضرورة العيش البسيط المعتدل، لأنّ كثرة الحاجات والرغبات تؤدي إلى القلق والاضطراب، بينما يحقق التقليل من الحاجات راحة النفس وهدوءها. فالإنسان السعيد عنده ليس من يملك الكثير، بل من يكتفي بالقليل ويعيش في انسجام مع ذاته. لذلك دعا إلى الاعتدال والزهد النسبي، وعدّ القناعة أساسًا من أسس الحياة السعيدة ومن جهة أخرى، يرى أبيقور أنّ السعادة تعتمد على النفس أكثر من اعتمادها على الظروف الخارجية، لأنّ الإنسان الحكيم يستطيع أن يحافظ على هدوئه الداخلي مهما تبدلت

الأحوال. ولهذا منح أهمية كبرى للصداقة، واعتبرها من أسمى اللذات العقلية، لما توفره من أمان نفسي وتعاون ومساندة بين الأفراد، حتى أصبحت الصداقة عنده ضرورة أخلاقية لا غنى عنها لتحقيق الحياة الهانئة.

أما فيما يتعلق بالقوانين، فقد رأى أبيقور أنّ وجودها ضروري لتنظيم المجتمع وردع الجهّال والحمقى الذين يعجزون عن تقويم سلوكهم بأنفسهم، فيقعون في الظلم والاعتداء على الآخرين. أما الحكيم فإنه يسلك طريق العدل بإرادته الحرة ومن غير حاجة إلى خوف من العقاب، لأنه يدرك بعقله أن العدل يحقق الطمأنينة والاستقرار. ومع ذلك شدد أبيقور على ضرورة احترام القوانين، لأنها تحفظ الأمن وتمنع الفوضى، وتساعد الإنسان على أن يعيش حياة آمنة ومستقرة. وبذلك يتضح أن الأخلاق الأبيقورية قامت على ربط السعادة باللذة العقلية المعتدلة، وعلى الدعوة إلى التحرر من الخوف والقلق والشهوات المفرطة، من أجل الوصول إلى حياة يسودها السلام الداخلي والطمأنينة النفسية.